

سعدى الشيرازى و حاضرة الإسلام من خلال قصيدته الرائية فى رثاء بغداد

فيروز حيرچى*

قيس آل قيس**، زهراء حكيمزاده***

الملخص

إن اكتشاف شخصية سعدى الأدبية و معرفة مسيرته الكاملة للأثر العربى فى أدبه لا يتحققان بصورة كلية عند دراسة آثاره الأدبية فى اللغة الفارسية فحسب، بل لا يتمان إلا بدراسة نتاجه العربى المتمثل فى أشعاره العربية جنباً الى جنب دراسة نتاجه الفارسى. و لسعدى فى لغة الضاد أغراضٌ شتى كالمدح والوعظ والتوحيد والمناجاة والرجاء والرثاء. وله فى الغرض الأخير قصيدةٌ فريدةٌ من بين أشعاره العربية، تستحق إفراد مساحة خاصة بها وهى قصيدته الرائية ومرثيته التى قالها فى خراب بغداد ومقتل الخليفة وضياع الخلافة العباسية. وقصيدته الرائعة هذه التى أنشأها بعد خراب بغداد على أيدى التتار، هى من أروع أشعاره العربية، فنياً أو شعرياً أو عاطفياً أو بكل المقاييس. و من ناحية أخرى هى أطول قصائده، سواء الفارسية منها أو العربية، والتى نرى أنها لم تأخذ حقها من الذكر والإشارة أو التدقيق و التمهيص. فقد كان لثقافة سعدى القرآنية كمصدر أساسى، أثر كبير و دور فعال بأسلوب يمكنه من التعبير عن شتى أغراضه وتجاربه ومختلف أفكاره وأهدافه. فاستعان بمعجم مفردات القرآن الثرى واستلهم صورته وإشاراتِهِ، و عى نضته وأسلوبه. و تشتمل قصيدته على محسنات تتسم بالفصاحة و البلاغة و الروحانية و

* استاذ كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة طهران

** استاذ مشارك، أكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية Al kaiss@ihcs.ac.ir

*** ماجستير آداب اللغة العربية z.r.m.hakim@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١١/٢٠، تاريخ القبول: ١٣٩١/١/٢٧

الجمال، لما تحويه من مضامين سامية و مسائل اجتماعية مختلفة، و هو يُدرك جيداً مهمته الأخلاقية و الإجتماعية و الدينية. فقد لجأ سعدى الشيرازى إلى استخدام موروثه الثقافى العربى الذى اكتسبه من تتلمذه فى مدارس البلاد العربية و مراكز تعليمها و تجواله و سياحته فى سائر البلدان، كما يبدو تأثير الثقافة العربية القديمة فيه واضحاً باستخدامه لأساليب التعبير العربية.

الكلمات الرئيسة: الشعر العربى، الرثاء، مرثية بغداد، سعدى الشيرازى، القصائد العربية.

١. المقدمة

أحدثت الدراسات الأدبية فى الثقافتين العربية و الفارسية تياراً جديداً فى التحقيق و الدراسة و البحث فى تفاعل ثقافتى العرب و الإيرانيين. و استنهضت هممُ الباحثين الجامعيين و الأدباء و الشعراء المثقفين بوجه عام، لدراسة الصلات العميقة و العريقة التى لم يسبق أن ربطت بين أمتين، كما ربطت بين العرب و الفرس. و إن أحسن العالم الإسلامى استعمال ما يمتلكه من مقومات حضارية فسينتظره مستقبل عظيم على الساحة العالمية. فبريق التطور التقنى فى السلاح و العلاقات و فى سائر المجالات قد بَهَرَ الكثير و أصبح غطاءً يحجب حقيقة الوجود الحضارى لأمتنا. لكن النور الذى سيبقى، هو نور الإسلام و حضارته التى لا منافس لها على الساحة العالمية.

و وحدتنا الحضارية ضرورة حياتية فى عالم اليوم، و سعدى الشيرازى قدّم نموذجاً رائعاً للوحدة الحضارية بين الإيرانيين و العرب، و ما هو إلا رمزٌ من رموز وحدتنا الحضارية. فمزجه بين اللغتين العربية و الفارسية هو من مظاهر اهتمامه بهذه الوحدة. و فضلاً عن خطابه الذى يتجاوز حدود الزمان و المكان، استطاع أن يقدم النموذج الرائع للامتزاج الحضارى بين هاتين الأمتين.

ونلاحظ هذا الامتزاج فيما خلفه لنا من تراث (جلستان، بوستان، و باقى أشعاره المعروفة بكليات سعدى) مزج فيه بين العربية و الفارسية بحيث لا يمكن أن يطالعها أحد إلا أن يكون مُلمّاً باللغتين معاً. و على الأرجح لم يكن عمله هذا عفويّاً، بل تعمّد ذلك ليثبت أن الامتزاج يبلغ باللغة إلى ذروة الكمال.

و كثرة التضمينات القرآنية و العبارات و الأبيات العربية التى تتغلغل فى نثره و تلمعُ شعره، و القصائد العربية التى تحتويها كليّاته، تثبت أنه أراد التنسيق بين اللغتين العربية و الفارسية ليخرج بنصوص تجمع بين الإثنين فى إطار رائع بعيد عن أى تكلف.

وتتجلى هذه الحقيقة في قصيدته الرائية التي رثى فيها بغداد بمقدمة غزلية مهد بها للدخول إلى أغراضه المتعددة وغرضه الرئيسي هو الرثاء. فجعلها أنشودة غنى على أوتارها أشجانه وعزف عليها أحزانه وبيّن من خلالها آلامه.

و كان استئناف العمل في تحرير هذا المقال، هو البحث عن أهم المصادر التي ذُكرت فيها القصيدة الرائية و توثيق نصوصها بمقارنتها مع بعضها البعض حسب ما جاءت في تلك المصادر مع ذكر أهم النقاط التي كان لابدّ من الإشارة إليها. و من ثمّ التطرّق إلى أهم المصادر التي تأثر بها الشاعر في قصيدته و استلهم عباراتها و مفرداتها منها، و هي المصادر الدينية (كالقرآن و السنّة)، و الأمثال و الحكّم العربية، الموروث التاريخي و صوراً تربوية و اخلاقية بالإضافة إلى تصوير مشاعره و أحزانه، و لم نغفل عن الإشارة إلى بعض الصناعات الإديبية المستخدمة فيها.

و الغاية من هذه الدراسة:

أولاً: بيان المفاهيم الإجتماعية الكامنة في القصيدة.

ثانياً: الإشارة إلى بعض فنون التعبير الأدبي و الخيال الشعري في تصوير المأساة.

ثالثاً: توضيح بعض مقاصده:

(أ) تعاطفه مع البؤساء و الفقراء؛

(ب) ضرورة الإلتزام بالعدالة و حسن العمل، و الإشارة إلى زوال الدنيا عن طريق النصح

و الموعدة.

رابعاً: بيان بساطة اللغة و تناسب الأوزان و صراحة التعبير في نهجه الواضح.

خامساً: استنباط بعض خصائص شخصية الشاعر من خلال القصيدة بأنه كان أديباً و واعظاً متبصراً في أحوال عالمه و ناصحاً قد ذاق حلاوة العيش و مرّها.

سادساً: إكتشاف الأدب العربي عند سعدى و أن صولاته في الأدب العربي كصولاته في الأدب الفارسي، و أنه واحد من المحبّين ذوى الأبعاد الكثيرة، فهو شاعر الأخلاق و الشريعة في آن و احد.

سابعاً: تأثير القرآن الكريم و السنّة على قصيدته.

ثامناً: بيان مشاعره و آلامه من خلال القصيدة و مواظمتها للحقيقة الإنسانية.

وهناك لونٌ و غرضٌ آخر أجاد فيه سعدى و وُفقَ فيه أكثر توفيق، وهو رثاء الممالك الزائلة و الوقوف على البلدان الخربة المدمرة. و نستطيع أن نستعير بهذا الفن عن الوقوف بالأطلال و البكاء على الدمن البوالي و الرسوم الدوارس. فنجده يبدأ قصيدته الرائية بيتاً طالما

استهل شعراء العربية قصائدهم بمثله، كالوقوف على الأطلال ومخاطبة الصاحبين و استخدم القَسَمَ بلفظ «لعمري»، وما إلى ذلك مما يُعدُّ أدباً عربياً خالصاً.

٢. توثيق النصّ

و قبل الخوض فى دراسة قصيدة سعدى الرائية، يجدر بنا أن نقوم أولاً بجولة نستطلع فيها أهم المصادر التى ذكرت فيها هذه القصيدة.

تحتوى كليات سعدى فى جميع نسخها تقريباً على قسم خاص بالقصائد العربية، وقد أجرى الدكتور مؤيد شيرازى^١ دراسة وافية لنصوصها الشعرية وأشار إلى أهم الفوارق الموجودة فى النسخ المختلفة من كليات سعدى^٢ فى كتابه *شناختى تازيه / از سعدى (مؤيد شيرازى، ١٣٦٢: ١٣٣٣)*، ومن هذه النصوص قصيدة سعدى الرائية فى رثاء بغداد التى قالها عند إغارة المغول عليها وقتلهم الخليفة العباسى الأخير «المستعصم بالله»^٣ وأهل بيته. ولهذه القصيدة أهمية خاصة لأنها تصوّر لنا الأثر الذى تركته هذه الغارة المفزعة فى نفس شاعر من الشعراء المسلمين المعاصرين لهذه الكارثة المؤلمة. والقصيدة برمتها تبلغ اثنين وتسعين بيتاً. وكما هو واضح فإن ما ذكره الدكتور مؤيد شيرازى فى كتابه المذكور هذا، أن نصّ القصيدة يتسم بالصحة فى هذا الكتاب أكثر ممّا جاء فى كلياته من حيث المعنى وإعراب المفردات إلا فى القليل، ولا يسعنا هنا استعراض النصّ بكامله كما جاء فى هذا الكتاب، و لكن سنسرد بعض الآيات التى وردت فيها بعض الأخطاء، و مقارنتها مع النسخ الأخرى مع ذكر وجوهها الصحيحة:

١. أُدِيرَت كُؤُوسُ الْمَوْتِ حَتَّى كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الْأَسَارَى تَرَجَّحَنُ مِنَ السُّكْرِ

فى جميع النسخ «كأنه»، وفى «شناختى تازيه»، يقول: ولكن «كأنها» أنسب، ولم يذكر السبب، وكأنه يُرجع الضمير الى «كؤوس الموت»، ويبدو ذلك بعيداً عن الصواب، فالشاعر يشبه ذلك المشهد ويصوّره ويُرجع الضمير إلى تلك الصورة والحالة التى كانوا عليها، أى أصبح الناس أنفسهم، و ليست الكؤوس، يميلون يميناً و شمالاً ممّا شربوا من كؤوس الموت، و عليه يكون «كأنه»، أقرب للصواب.

٢. فَجَرَّتْ مِيَاهُ الْعَيْنِ فَازْدَدْتُ حُرْقَةً كَمَا اخْتَرَقَتْ جَوْفُ الدَّمَامِيلِ بِالْفَجْرِ

فى الطبعة الحجرية (سعدى شيرازى، ١٣٠٥: ٢) «سياه» بدلاً من مياه، وهى كلمة فارسية، و معناها سواد.

۳. فَأَيْنَ بَنُو الْعَبَّاسِ مُفْتَخِرِ الْوَزَى ذُو الْخُلُقِ الْمَرْضَى وَ الْغَرْرِ الزُّهْرِ

فی نسخه (فروغی، ۱۳۲۰: ۹۲) «مفتخروا» و يبدو بعيداً عن الصواب، و ما یربده الشاعر، هو أن الناس هم الذين يفتخرون ببني العباس، و بتعبير آخر، يكون بنو العباس مصدر فخر للناس، و عليه يكون «مفتخر» هو الصحيح.

۴. أ أَعْرَبُ مِنْ هَذَا يَعُودُ كَمَا بَدَا وَسَبَى دِيَارِ السَّلَامِ فِي بَلَدِ الْكُفْرِ؟

فی کتاب شناختی تازه (مؤید شیرازی، ۱۳۶۲: ۱۱۳۹) و فی کلیات سعدی نسخه (فروغی، ۱۳۲۰: ۹۲) بالنصب (أعرب) والصواب هو أن يكون مرفوعاً لأنه مبتدأ.

۵. لَعْمَرُكَ لَوْ غَايَنْتَ لَيْلَةَ نَفْرِهِمْ كَأَنَّ الْعَذَارَى فِي الدُّجَى شُهْبٌ تَسْرَى

فی شناختی تازه (مؤید شیرازی، ۱۳۶۲: ۱۱۴۰) و فی نسخه (فروغی، ۱۳۲۰: ۹۳) بالنصب (العمرک)، و فی باقی النسخ بالرفع، و الصحيح أن يكون مرفوعاً (لعمرك) لأنه مبتدأ.

۶. وَ قَفَّتْ بَعْبَادَانِ بَعْدَ صَرَاطِهَا رَأَيْتُ خَضِيْبًا كَالْمِنَى بِدَمِ النَّحْرِ

صراة: فی جميع النسخ سراتها باستثناء النسخة الحجرية (سعدی شیرازی، ۱۳۰۵: ۳) فهی «بعد خرابها» و نسخة الدكتور مؤید شیرازی «بعد صراتها».

المنى: فی جميع النسخ «كالمنى» و فی النسخة الحجرية (المصدر نفسه) كالبني.

۷. عَفَا اللَّهُ عَنَّا مَا مَضَى مِنْ جَرِيْمَةٍ وَ مَنْ عَلَيْنَا بِالْجَمِيلِ مِنَ الصَّبْرِ

فی الطبعة الحجرية (المصدر نفسه: ۴) «الستر» بدلاً من «الصبر».

۸. مَلِيكَ غَدَاً فِي كُلِّ بَلْدَةٍ اسْمُهُ عَزِيْزاً وَ مَحْبُوْباً كَيُوسُفَ فِي مِصْرٍ

فی الطبعة الحجرية (المصدر نفسه)، «علا» بدلاً من «غدا»، و يبدو أن كلتا المفردتين صحيحة، و لكل منهما معنى يلائم معنى البيت.

۹. فَفِي السَّمِطِ يَأْقُوتُ وَ لَعْلٌ وَ جَاغَةٌ وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ يُكْفِّرُ بِالْعُدْرِ

فی الطبعة الحجرية (المصدر نفسه)، «زجاجة» بدلاً من «جاجة»؛ فمن حيث المعنى لا فرق بينهما، لأن الزجاج بخس الثمن، و كذلك الجاجة، و إن كانت الجاجة أبخس. و لكن من حيث الوزن يبدو أن مفردة «زجاجة» تخلّ بوزن البيت، لأنها تزيدها حرفاً.

٣. قصيدة سعدى الرائية فى رثاء بغداد

وإذا ما سلطنا الضوء على قصيدته الرائية هذه وتتبعنا مسار روافدها الثقافية، سنجد أنها تعتمد بشكل عام على الثقافة الإسلامية كما فى سائر موروته الأدبى من شعر ونثر. فقد ازدحمت قصيدته بألفاظ قرآنية و ملامح مستوحاة من الذكر الحكيم وأحاديث نبوية شريفة وألفاظ شرعية مستمدة من الدين الإسلامى الحنيف (الحديث والسنة)، وكل ذلك يعبر عن شخصيته الإسلامية ونزعه المذهبية ونشأته الدينية.

وفى هذا الصدد اعتمد على ثقافتين عريقتين من روافد الثقافة الإسلامية. أولهما: ثقافته الإيرانية المتمثلة فى لغته الأم الفارسية، وثانيهما: ثقافته العربية التى تجلّت فى شعره الفارسى والعربى معاً، فمثل أغراض شعرها وألوان أدبها، واستعان بصور بلاغتها وأساليب تعبيراتها، وتأثر بأدق خصائصها.

فكل من له معرفة - ولو قليلة - بالقرآن الكريم يدرك أن سعدى يدور حول كلام الله سبحانه و تعالى و كلام رسوله الكريم (صلى الله عليه و آله و سلم) و حول كل ما جاء فى الشريعة المقدسة السحاء.

١.٣ المصادر الدينية لقصيدة سعدى الرائية (رثاء بغداد)

ومن أهم المصادر الدينية لقصيدته الرائية، القرآن الكريم. حيث يُمثّل القرآن الكريم المصدر الرئيسى للألفاظ والصور الفنية عنده، ويُعدُّ المحور المركزى الذى تدور حوله أفكاره وتعبيراته ووسائله اللغوية بصفة عامة. حيث نهل من رافد القرآن الكريم «حتى أصبحت عباراته - كما تدلُّ عليه مجموعة أشعاره العربية - جزءاً لا يتجزأ من كيانه الثقافى» (مؤيد شيرازى، ١٣٦٢: ١٠٥).

١.١.٣ القرآن الكريم

وفى هذه القصيدة استعان بمفردات القرآن الكريم، فنجده يقول:

ولو كان كِسْرَى فى زمانِ حياتِهِ أَلْقَالَ إلهى اشدُّ بدولته أزرى

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٤)

(يقول) إذا كان كِسْرَى أنوشيروان^٦ معاصراً لأبى بكر^٧، لدعى الله أن يُقوى دولته ويعزّز سلطانه بدولة هذا السلطان (أبى بكر).

وفى البيت مبالغة و اقتباس من قوله تعالى: (وَأَجْعَلْ لى وَزيراً منْ أهلى، هارونَ أخى، أَشَدُّ بهِ إزرى) (طه: ٢٩ - ٣١).

ويقول سعدى في مطلع رأيته الرائعة:

حَبِسْتُ بِجِنْفِي الْمَدَامَ لَا تَجْرِي فَلَمَّا طَغَى الْمَاءُ اسْتَطَالَ عَلَى السُّكْرِ

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦١)

وفي البيت صناعات كثيرة «تشبيه تمثيلي» و «تشبيه ضمني» في المصراعين معاً، و «استعارة تصريحية تبعية» في «طغى الماء» من «يعلو»، وتلميح أيضاً للآية القرآنية: (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) (الحاقة: ١١) وتذييل في المصراع الثاني: «السُّكْر». وفي قوله:

كَأَنَّ شَيْطَانِ السَّقِيودِ تَفَلَّتَتْ فَسَالَ عَلَى بَغْدَادَ عَيْنٌ مِنَ الْقَطْرِ

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٣)

وكان هولاء و جنوده شياطين مغلولو الأيدي ولم يكونوا قادرين على مهاجمة ديار المسلمين وقد انكسرت قيودهم اليوم وتخلصوا منها فانصبوا على بغداد واحرقوها ودمروها كما ينصب النحاس المذاب على الشيء فيجعله راماداً.

وفي البيت تلميح إلى الآية الكريمة: (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) (سبأ: ١٢)، ويقول أيضاً:

هَنِيئاً لَهُمْ كَأْسُ الْمَنِيَّةِ مُتْرَعاً وَ مَا فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عَظْمِ الْأَجْرِ

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٢)

فهنيئاً للشهداء استشهادهم والدرجات الرفيعة التي نالوها، وطوبى لهم جنة المأوى وما سينالهم من أجر عظيم و ثناء جميل من الله.

وفي البيت إشارة إلى آيات عديدة وردت في القرآن الكريم عن الأجر العظيم، منها (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ) (آل عمران: ١٧٢)، ويشير إلى قصة نبي الله يونس والحوث الذي ابتلعه، وبقائه في بطنه فترة يعلمها الله^١ في قوله:

ضَفَادِعُ حَوْلَ الْمَاءِ تَلْعَبُ فَرِحَةً أَصْبَرُ عَلَى هَذَا وَيُونُسُ فِي الْقَعْرِ

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٢)

فسعدى حزين لضيق دار السلام وممالك المسلمين وحضارتهم، ويتألم لفقد الخليفة المستعصم بالله فيقول، إن جنود هولاء اجتاحتوا البلاد وهم يعبثون ويلعبون فرحاً حول دجلة وفي بغداد كلها. وكيف لنا أن نطبق كل هذا ونصبر عليه في حين أن يونس، وهو المستعصم في قعر البحر؟ و يعنى بذلك أنه قد أحاطت به الخطوب و ألمت به دواهي الدهر و لم يستطع الخلاص منها و اصبح كالغريق.

والضفادع كناية عن المغول، ويونس كناية عن المستعصم بالله. وفى المصراع الثانى أسلوب إنشائى متمثل فى الإستفهام «أصبر...؟» الذى أراد به النفى. كما أشار إلى قصة يوسف وجماله ومكانته فى مصر، فقال:

مليک غدا فى كل بلدة اسمه عزيزاً و محبوباً كيوסף فى مصر

(فروغى، ١٣٢٠: ٩٤)

و يشير إلى قصة «هاروت» و «ماروت» الواردة فى القرآن الكريم، فيقول: «ولو كان عندى ما ببابل من سحر» وهو تلميح الى الآية القرآنية الكريمة: (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) (البقرة: ١٠٢).

وما الشعر أيم الله لست بمدع ولو كان عندى ما ببابل من سحر

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٤)

فقول الشعر أمرٌ يسير بالنسبة له، و يقسم بالله على عدم ادعائه بالشعر، وإن كان البيان فى كلامه كالسحر الذى كان الناس يعملون به فى مدينة بابل.

وهكذا يبدو أن التعبير القرآنى قد تغلغل فى روح سعدى على نحو فذ، ومن بلغ هذا الحد من الوعى بروعة الأسلوب القرآنى لا يمكن أن يكون بعيداً عن إدراك أسرار العربية (مؤيد شيرازى، ١٣٦٢: ١٠٥).

٢.١.٣ الحديث والسنة

وكان تأثر سعدى بالحديث النبوى الشريف كتأثره بالقرآن الكريم، وانعكس ذلك على أدبه العربى، حيث استلهم محتواه ومعناه، فأورد فى إشارات وتلميحات حيناً، و بشكل صريح ومباشر أحياناً أخرى.

وفى الخبر المروى دين محمد يعود غريباً مثل مبتدأ الأمر

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٢)

و فيه إشارة صريحة الى الحديث النبوى الشريف: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» (القشيري النيسابورى، ١٣٣٢: ٩٠ / ١). وقوله شعث فى ...

و إن صباح الأسر يوم قيامة على أمم شعث تسلق الى الحشر

(فروغى، ١٣٢٠: ٩٣)

مأخوذ من الحديث النبوي الشريف: «رُبَّ أَسْعَثِ أَغْبِرَ ذِي ضَرِينِ لَا يُؤْبَهُ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَيَّ لِأَبْرِهِ» (ابن الأثير، ١٣٦٤: ٢ / ٤٧٨).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَبَاهِي بِأَهْلِ عِرْفَاتِ أَهْلِ السَّمَاءِ، يَقُولُ انظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاءُونِي شَعْتًا غَبْرًا» (المتقى الهندي، ١٤٠٩: ٥ / ٧٠).

وبكل براعة يُشير تلميحا إلى الحديث الشريف «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (القشيري النيسابوري، ١٣٣٢: ٨ / ١٤٢ الهامش).

وَجَنَّاتٌ عَدْنٌ حُفَّتْ بِمَكَارِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ شَوْكِ عَلَى فَنَنِ الْبَسْرِ

(فروغي، ١٣٧٤: ٩٦٢)

واقْتَبَسَ فِي قَوْلِهِ «جَنَّاتٌ عَدْنٌ» مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: (جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) (طه: ٧٦) فَقَدْ اقْتَبَسَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ قُرْآنِيَّةٍ وَحَدِيثًا نَبَوِيًّا شَرِيفًا، (فَيَقُولُ) وَجَنَّاتٌ عَدْنٌ مُحْفُوفَةٌ وَمَحَاطَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالْمَصَاعِبِ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ أَنَّ مَا أَصَابَنَا مِنْ مَكْرُوهٍ شَيْءٍ لَا بُدَّ مِنْهُ لِبَلُوغِ جَنَّةِ الْمَأْوَى، وَكُلِّ حَلَاوَةٍ مَعَهَا مَرَارَةٌ وَكُلِّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَفِ الرُّطْبَ لَا بُدَّ أَنْ يُجْرَحَ بِالْأَشْوَاكِ. وَتَحَمَّلَ الْمَتَاعِبَ وَالْمَشَاقِقَ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ.

ومعناه لا يوصل الجنة الا بارتكاب المكاره وكذلك هي محجوبة بها فمن هتك الحجاب وصل الى المحجوب فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو واللمم والصدقة والإحسان الى المسيء والصبر عن الشهوات ونحو ذلك (القشيري النيسابوري، ١٣٣٢: ٨ / ١٤٢).

كما أفاد من الحديث النبوي الشريف المشهور، «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا» (الإمام أحمد بن حنبل، بلاتا: ١ / ٢٧٣؛ الشيخ الطوسي، ١٣٥١: ٨ / ٢٢٧)، فيقول:

وَمَا الشَّعْرُ أَيْمُ اللَّهِ لَسْتُ بِمُدَّعٍ وَ لَوْ كَانَ عِنْدِي مَا يَبَابِلُ مِنْ سِخْرِ

(فروغي، ١٣٣٠: ٩٥)

٢.٣ تأثره بالأمثال والأقوال العربية

فقد لجأ سعدى إلى استخدام موارثه الثقافي العربي الذي اكتسبه من تتلمذه في مدارس البلدان العربية ومراكز تعليمها وتجواله في سائر البلدان وسياحته فيها. وقد تمثل هذا الموروث العربي في الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والأبيات الشعرية القديمة بألفاظها وأفكارها وصورها

وموسيقاها، وكلها ترسبات و تجمعات ثقافية لا تأتي إلا بطول المعاصرة و المعاشرة والتناول المباشر للغة بكافة مستوياتها و عناصرها.

فقوله «شعثاً غبراً» تعبير عربى معروف، يقال: جاءك الناس شعثاً وغبراً (ابن منظور، ١٤٠٥: ٢ / ١٦٠)، أى وجوههم معفرة مغبرة بالتراب من طول السفر فى الطرق الصحراوية الوعرة، و رؤوسهم مغبرة وشعورهم منتفخة، مجددة و جافة من كثرة مكابدة العواصف والرياح الرملية، وهو أثر للبيئة العربية على أدب سعدى.

كما يبدو تأثير الثقافة العربية القديمة واضحاً فى قصيدته باستخدامه لأساليب التعبير العربية، منها أساليب التسم، فيقول:

لعمرك لو عاينت ليلة نفرهم كأن العذارى فى الدجى شهب تسرى

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٢)

ويُقسم قائلاً:

وما الشعر أيم الله لست بمدع ولو كان عندى ما ببابل من سحر

وهكذا فكلمتا «لعمرك» و «أيم الله» تعبيران عربيان متفردان ليس لهما مثيل فى باقى اللغات، ومصدره بالنسبة لسعدى هو أفق ثقافته الواسعة فى لغة الضاد.

وتعبير «سحر ببابل» هو أيضاً تعبير عربى معروف، أكثر الشعراء والأدباء من استخدامه. ومن التأثير العربى الواضح استخدامه لفظ المثنى وخطاب الصحبين على عادة القدماء، وذلك لأن الصحبة والرفقة أدنى ما تكون ثلاثة. فقد كان الشاعر العربى الجاهلى يرافقه اثنان أحدهما لحمل سلاحه والآخر لحمل طعامه. وقد سُميت الصحراء بالمفازة باعتبار أن من يطويها قد فاز بحياة جديدة، فهى محفوفة بالمخاطر، ولا يمكن أن يجتازها الإنسان وحده، ما لم يصحبه على الأقل واحد أو اثنان. فلذا خاطب شعراء الجاهلية صاحبين كقول امرؤ القيس:

فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، بسقط اللوى بين الدخول، فحومل

(البستاني، ١٩٤٦: ٣١ / ١)

ثم أصبح نهجاً تداوله الشعراء العرب فى مختلف العصور الإسلامية، وأضافوا إليه مخاطبة النديمين والساقيين، وسار على نهجهم سعدى فى قوله:

خلى ما أحلى الحيوية حقيقة و أطيها لو لا الممات على الاثر

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦٤)

وكأنه يخاطب صاحبيه فيقول يا صاحبي ما أحلى الحياة وما أطيها، إن لم يكن الموت على إثرها. وهكذا يستخدم سعدي موروثه العربي، فيقول:

تراحمت الغريبان حَوْلَ رُسومها فَاصْبَحَتِ العنقاءُ لازِمةَ الوُكْر

(أشتياني و فروغى، ١٣٥١: ٤٠٦)

فالرسوم و ما بقى من آثار ديار الحبيبة من أطلال بارزة و دِمن مندرسة تسوّدت بما بقى فيها من رماد و بعز، كلها تعابير عربية.

كما استخدم في رائعته هذه في أكثر من موضع كلمة «طوبى» وهو أسلوب عربي، حيث يقول:

إذا كان للإنسان عند خُطوبه يَزولُ الغنى طوبى لمملكة الفقر

(فروغى، ١٣٢٠: ٩٤)

و طوبى لمملكة الفقر، عبارة عن جملة دعائية، و من حيث المضمون، و من حيث تعاطفه مع الفقراء، تُذكرنا بالحديث النبوي الشريف: «الفقر فخري و به أفتخر» (الحلى، [بلاتا]: ١١٣؛ الإحصائي، ١٤٠٣: ١ / ٣٩).

ويستعين بمكونه الثقافي العربي أيضاً في مكان آخر و يورد اسمي الخنساء^{١١} وأخيها صخر الذي رثته بمراثيها المعروفة و الخالدة، فيقول:

مررتُ بِصَمِّ الراسياتِ أجوبها كخنساءٍ مِنْ فُرطِ البكاءِ على صخرٍ

(فروغى، ١٣٧٤: ٩٦١)

والببت لا يخلو من صنعة التورية، فقد أورد سعدي كلمة «صخر» ومعناها القريب الحجر، وأراد المعنى البعيد وهو صخر أخو الخنساء.

٣.٣ صورٌ من آلام الشاعر وشجونه

تسيطر على الشاعر عاطفة الضيق والألم والتبرم الممزوجة باليأس، وقد ظهر أثرها على القصيدة. فبعد أن يبدأ قصيدته بببت طالما استهل بمثله شعراء العربية فيقول:

حبستُ بِجَفنى المدامع لا تجرى فلما طغى الماءُ استطال على السكر

يندب الديار الخربة وبيكى تلك المعالم المتهاوية وتبدو في القصيدة ملامح ألوعة والألم العميق، حتى أنه ليتمنى الموت قبل هذه الواقعة، و نلاحظ مدى الحزن والألم والتأثر على شاعرنا حتى أنه يقول في البيت الثاني:

نَسِيمٌ صَبَا بِبَغْدَادَ بَعْدَ خَرَابِهَا تَمَنَيْتُ لَوْ كَانَتْ تَمُرُّ عَلَى قَبْرِى

(أشتيانى و فروغى، ١٣٥١: ٤٠٤)

فقد تمنى ألا يعيش حتى لا يرى بعينه خراب بغداد و ما جرى عليها وما أصابه على إثرها من ألم و حسارة. فقد فاضت مشاعره بكل الأحاسيس والمشاعر الإنسانية والإسلامية. ثم يسرد المأساة، فيقول:

أَدِيرْتُ كُؤُوسَ الْمَوْتِ حَتَّى كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الْأَسَارَى تَرَجَّحْنَ مِنَ السَّكْرِ
لَقَدْ تَكَلَّمْتُ أُمَّ الْقُرَى وَلِكَعْبَةٍ مَدَامُغٌ فِي الْمِيزَابِ تَسْكُبُ فِي الْحِجْرِ

(المصدر نفسه)

يُصَوِّرُ الْخَرَابَ وَالدمارَ وَانتشارَ الموتِ والأهوالَ، كما يَصَوِّرُ عُمومَ النكبةِ وشبوها في البلدان الإسلامية الأخرى إذ ان مَثَلَ المسلمين في توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فهو يَصَوِّرُ الحزنَ وقد امتد في أرجاء المعمورة، حتى تأثرت أُمُّ القُرَى وانعكست الأشجان على الكعبة، فظهرت كأنها أُمُّ تَكَلَّى. وها هي جُدُرُ المستنصرية تندب حظها فتتوح باكية شجنًا على علمائها الأفاضل و رجالها العظام.

بَكَتْ جُدُرُ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ^{١٢} نَدْبَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ ذَوَى الْحِجْرِ

(المصدر نفسه)

ثمَّ يُلجأ إلى اسباغ مشاعره على الطبيعة ليوحد نوعاً من التجاوب بين الإنسان والمكان، فيقول:

وَقَفْتُ بِعَبَادَانَ أَرْقُبُ دِجْلَةَ كَمِثْلِ دَمٍ قَانَ بِسَيْلٍ إِلَى الْبَحْرِ

(المصدر نفسه)

ولا ينسى أن يستعيد ويُعيد المسلمين بعفو الله وأن يقبضهم شرَّ الفتنة التي يمكن أن تفتك بالمسلمين وبالآقطار الإسلامية قطراً بعد قطر:

نَعُوذُ بِعَفْوِ اللَّهِ مِنْ نَارِ فِتْنَةٍ تَأْجِجُ مِنْ قَطْرِ الْبِلَادِ إِلَى قَطْرِ

(فروغى، ١٣٢٠: ٩٣)

ويبين تدمره ونفاد صبره، فقد توالى عليه الشدائد فغداً بيتُ أحزانه ويشكو آلامه:

إِلَامٌ تَصَارِيفُ الزَّمَانِ وَجَوْرُهُ تَكَلَّفْنَا مَا لَا نَطِيقُ مِنَ الْإِصْرِ

(المصدر نفسه: ٩٤)

۴.۳ الصور التربوية والأخلاقية

ثمَّ ينطلق في أقل من عشرين بيتاً ناصحاً أخاه الإنسان مستهلاً بالوعظ، وخاتماً قصيدته بغليظ القول على الشامت المعير بالدهر والموت، مشيراً إلى أن الأيام دُولٌ (وَتَلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: ۱۴۰) والزمان ذو غيرٍ مهيباً بكل مغرور إلى الإفاقة والصحوّة من نشوة الغرور، قائلاً أن نكبة «زيد» هي مزجرة «لعمر».

رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو

(فروغى، ۱۳۲۰: ۹۴)

وفي الأبيات التالية؛ يعطى عبرةً وعظةً لتقلبات الأيام وغدر الزمان وذلّ الإنسان بعد عزٍّ ومجد:

لَعْمُرُكَ لَوْ عَايَنْتَ لَيْلَةَ نَفَرِهِمْ
وَأَنَّ صَبَاحَ الْأَسْرِ يَوْمَ قِيَامَةٍ
وَمُسْتَصْرِخٍ يَأْتِي لِلْمُرُوءَةِ فَاَنْصُرُوا
يُسَافِقُونَ سَوَاقِ الْمَعَزِ فِي كِبَدِ الْفَلَا
جُلِسْنَ سَبَايَا سَافِرَاتٍ وَجُوهُهَا
كَأَنَّ الْعِدَارَى فِي الدُّجَى شُهْبٌ تَسْرَى
عَلَى أُمَّمٍ شُعْتٌ تُسَاقُ إِلَى الْحَشْرِ
وَمَنْ يَصْرُخُ الصُّفُورَ بَيْنَ يَدَيِ صَقْرٍ؟
عَزَائِرُ قَوْمٍ لَمْ يُعَوِّدْنَ بِالزَّجْرِ
كَوَاعِبَ لَمْ يُبْرِزْنَ مِنْ خَلَلِ الْخِدْرِ

(المصدر نفسه)

و يؤكد على وجوب التزام الملوك بالعدالة والسخاء وحسن العمل، ويشير في أماكن من قصيدته إلى زوال الدنيا، ومن أجل هذا الهدف استخدم نوعاً من بيان النصح والموعظة فيقول:

أَبْلَغُ مِنْ أَمْرِ الْخِلَافَةِ رُتْبَةٌ
هَلُمَّ انظُرُوا مَا كَانَ عَاقِبَةَ الْأَمْرِ

(المصدر نفسه)

وفي مكان آخر يقول:

وسائر مُلْكٍ يَقْتَفِيهِ زَوَالُهُ
سوى ملكوتِ القائمِ الصمدِ الوترِ

(المصدر نفسه)

وكأنه أراد بذلك أن يدفع عن العباسيين خزي الهزيمة، ويهون من شأن دنياً تنتهي أخيراً إلى فناء. فالحياة في نظر سعدى غادرة لا عهد لها، وإن قدمت عطاءً ما، فلا بد أن تسترد ما وهبته، فهي لا تحفظ عهداً ولا وداً. وفي ذلك يقول:

أَلَا إِنَّمَا الْأَيَّامُ تَرْجِعُ بِالْعَطَا
وَلَمْ تَكْسُ إِلَّا بَعْدَ كِسْوَتِهَا تُعْرَى

(المصدر نفسه)

فهو يرى هذه الدنيا الى زوال ولا خلود فيها، ولا بد لهذا الصخب من هدوء، ولهذا الشدّ وال جذب من نهاية، فالموت قادم لا محالة فلماذا نعلق النفس بالسراب، فلا خلود فى الدنيا، وإلا فأين الذين سبقونا؟

وَرَاءَكَ يَا مَعْرُورُ خَنْجَرُ فَاتِكِ
وَأَنْتَ مُطَاطٌ لَا تُفِيقُ وَلَا تَدْرَى

(المصدر نفسه)

ويرى إمكانية البقاء بالعمل الصالح، فهو شاعر تتغلب عليه الروح الدينية، فيقول:

رَبِحْتَ الْهُدَى إِنْ كُنْتَ عَامِلَ صَالِحٍ
وَإِنْ لَمْ تَكُنْ وَالْعَصْرِ إِنَّكَ فِى خُسْرِ

(المصدر نفسه)

و تعاليم الإسلام القويمة تحت الإنسان على العمل الصالح، فلا نجد آية عن (الذين آمنوا) إلاّ وكانت مقرونة بـ (و عملوا الصالحات)، وهذا يعنى أن حقيقة الإيمان لا تكتمل إلاّ بالعمل الصالح. و بعد أن يموت الإنسان يترك كل شى وراء ظهره، إلاّ عمله، فهو صاحبه فى مشواه و مضجعه، إن كان صالحاً نجى و إن كان غير ذلك خسِر.

٥.٣ تأثره بالموروث التاريخى

كما لم يغفل عن التاريخ، فتحدّث عن «المستعصم» فى قوله:

وَمُسْتَصْرِحٌ يَا لِلْمُرُوءَةِ فَاَنْصُرُوا
وَمَنْ يُصْرِحُ الْعُصْفُورَ بَيْنَ يَدَى صَقْرٍ؟

(المصدر نفسه: ٩٣)

و «أولاد البرامكة» فى معرض حديثه عن عترة قنطوراء (بنو قنطوراء)^{١٣} وهم المغول والتتار الذين وصفهم بالضفادع التى تتعمّ بالماء وتمرح وتلعب حوله فى حين أن يونس وهو المستعصم، كما يراه سعدى، فى قعر البحر.

كما نعت المغول بالغربان التى تحوم حول الرسوم الدارسة فى حين أن العنقاء، أى المستعصم، يلازم وكره. كما لا يغفل عن مليكه أبى بكر ولا عن الشخصيات الأدبية كالخنساء. و نجد فى قصيدته الغراء هذه مفردات وشعائر دينية: جنات عدن - يوم القيامة - مطلع الفجر - اشدد به ازرى

و ... كما استخدم سعدی موروثه التاريخی واستدعى تراثه السياسی والديني في حديثه عن بنى قنطوراء وأبناء البرامكة في بيته التالي:

وعترة قنطوراء في كل منزل تصيح بأولاد البرامك من يشري

(المصدر نفسه)

و يذكر جنود هولاء و وصولهم الى خراسان، حيث ذبحوا أبناءها واستحبوا نساءها ودمروا البلاد وأكثرها فيها الولايات، فيقول:

بدا و تعالى من خراسان قسطل فعاد ركاماً لا يزول عن البدر

(المصدر نفسه)

و تصاعد الغبار من خراسان، لأن خيول الأعداء كانت تعدو فتثير النقع ومن ثم يستقر هذا الغبار و يتراكم ومن كثرتة علا و ارتفع حتى حجب القمر و ضوءه، وهذا يعنى أنه حجب النور، والظلام يغمر الكون. والشاعر حزين مضطرب ضيق الصدر، والأفق مظلم، مثله كمثل الشاعر، مهموم تتوالى عليه الشدائد ويحجب عنه نور القمر.

و يمدح الملوك من منطلق الوفاء بالجميل، وها هو يخاطب أبا بكر بن زكى، ويشير إلى قصة يوسف وجماله ومكانته في مصر.

ملك غدا في كل بلدة اسمه عزيزاً و محبوباً كيوسف في مصر

(المصدر نفسه: ٩٤)

و في بيت آخر يذكر كسرى انوشيروان فيقول:

ولو كان كسرى في زمان حياته لقال إلهي أشدُّ بدولته أزرى

(المصدر نفسه: ٩٥)

إذا كان كسرى أنوشيروان معاصراً للسلطان أبي بكر^{١٤}، لدعى الله أن يقوى دولته ويعزز سلطانه بدولته.

٦.٣ نموذج من الصور البلاغية والنحوية

كما تبدو إشارته النحوية البلاغية في ذكره لزيد و عمرو وهما مثالان يضربان في هذين العلمين، فيقول:

رَعَى اللهُ إِنْسَانًا تَقِيظُ بَعْدَهُمْ لِأَنَّ مُصَابَ الزَّيْدِ مَرْجَرَةَ الْعَمْرُو

(المصدر نفسه: ٩٤)

و نجده يصور الموت بصورة بلاغية رائعة، فيقول:

أَدِيرَتُ كُؤُوسُ الْمَوْتِ حَتَّى كَانَهُ رُؤُوسُ الْأَسَارَى تَرَجَّحُنُّ مِنَ السَّكْرِ

(المصدر نفسه: ٩١)

شَبَّهَ الْقَدْرَ بِالسَّاقِي، وساحة الحرب بالحانة، والمنية بصهباء تُصَبُّ فِي كُؤُوسٍ لِلشَّارِبِينَ مِنَ الشَّهْدَاءِ. وها هو الْقَدْرُ يَقُومُ بِدَوْرِ السَّاقِي فَيَدُورُ عَلَى الثَّمَلِينَ الشَّارِبِينَ بِكُؤُوسِ الْمَنِيَا. وهو تشبيه بليغ في صورة رائعة.

ولا يكتفى سعدى بهذا القدر ولا يقف عند هذا المستوى الفنى، بل يكاد ألا يقدر على إيقاف جماح نفسه الحزينة وتدقق مشاعره الفياضة بالأنين والأسى والحزن والألم، فيبالغ في تكوين الصورة الشعرية، ويقرر أن الأسارى قد انتشوا بما سكروا، فراحت رؤوسهم تتأرجح على أجسادهم من شدة الثمالة وسورة الخمر التي أخذت بالرووس فتركنتها تهتز و تتأرجح. وفي بيت آخر يقول:

لَقَدْ تَكَلَّتْ أُمُّ الْقَرَى وَلِكَعْبَةٍ مَدَامِعُ فِي الْمِيزَابِ تَسْكُبُ فِي الْحِجْرِ

(المصدر نفسه)

«أم القرى» و «لكعبة مدامع»: شَبَّهَ أُمَّ الْقَرَى بِالْأُمِّ، كَمَا شَبَّهَ الْكَعْبَةَ بِالْإِنْسَانِ وَحَذَفَ الْمَشَبَّهَ بِهِ وَأَتَى بِشَيْءٍ مِنْ لَوَازِمِهِ وَهِيَ «تكلت» و «مدامع» على سبيل الاستعارة المكنية، وسر جمالها التشخيص.

و يُدْعَى فِي بَيْتٍ آخَرَ فَيَقُولُ:

وَلَوْ كَانَ كِسْرَى فِي زَمَانِ حَيَاتِهِ لَقَالَ إِلَهِي اشْدُدْ بِدَوْلَتِهِ أَزْرِي

(المصدر نفسه: ٩٥)

وفي البيت مبالغة و اقتباس من قوله تعالى: (اشدُدْ بِهِ أَزْرِي) (طه: ٣١) أى ظهري، والمراد القوة. وهي عبارة عن جملة دعائية.

ويؤكد على عجزه لتصوير تلك المأساة و سردها كاملة، فيشبه شعره بالسمط الذى يحتوى على الحجر الكريم والبخس معاً فيقول:

فَفِي السِّطْرِ يَأْفُوتُ وَلَعْلٌ وَجَاجَةٌ وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ يُكْفِّرُ بِالْعَذْرِ

(فروغى، ١٣٢٠: ٩٥)

و تراه في بيت آخر منزجراً من الحياة المليئة بالمعاناة والنكد، فيتمنى الموت و يقول:

أَلَا إِنَّ عَصْرِي فِيهِ عَيْشِي مُنْكَدٌ فَلَيْتَ عِشَاءَ الْمَوْتِ بَادَرَ فِي عَصْرِي

(المصدر نفسه)

وهو بذلك يشبه الموت بوقت العشاء وبظلام الليل، لأن الموت مصحوبٌ بالكآبة والحزن. و عَصْرِي فِي الْمَصْرَعِ الْأَوَّلِ وَالْمَصْرَعِ الثَّانِي، جناس تام.

٧.٣ الصورة الشعرية في قصيدة رثاء بغداد

عندما نطالع قصيدته الرائعة هذه التي تناول فيها سقوط دار الخلافة «بغداد» وهاك أهلكها على يد هولاءكو و مقتل خليفته المستعصم، نجده يربط بين أجزاء القصيدة من حيث المعنى، فظهرت أفكارها مترابطة متماسكة لا تناقض بينها.

وينتقل فيها من فكرة إلى أخرى انتقالاً طبيعياً دون انفصال عن الموضوع الأصلي «الرثاء» وهو ما يسميه النقاد «بالخروج المتصل بما قبله» فهو انتقال ليس مقطوعاً عما قبله من حديث.

فنجد الصورة الشعرية عنده في هذه القصيدة باللوعة والحسرة و الألم مثلها مثل مشاعره تماماً.

(أ) يقول سعدى: أديرت كؤوس الموت حتى ... (المصدر نفسه: ٩١).

هو تشبيه بليغ أجاد سعدى في رسمه بصورة رائعة. وهي نوع من الصور المركبة التي كثيراً ما يجيدها سعدى في المواطن التي تبلغ فيها عاطفته ذروة اشتعالها واتقادها، حيث إن أطراف الصورة من المشبه: القدر، الشهداء، الموت، ساحة الحرب، وهي تركيبة رباعية الأطراف تتناسب تماماً مع الجزء الأول من الصورة. وهذا ما يسمى بتماثل بين المشبه والمشبه به، أو ما يسمى بتطابق وجه الشبه على أن يكون في المشبه به أقوى من الشبه. فهو تشبيه يمتزج بالخيال وقل حضوره بالبال وأدعى الى الإعجاب، يلائم الغرض الذي سيق من أجله، وله إحياءات نفسية وقيم جمالية معبرة في صورة بارعة.

(ب) وتنتقل سعدى بين أساليبه البلاغية الخبرية منها والإنشائية، خشية الرتابة والملل في

التزامه حالة واحدة، فتنقل بين الإنشاء الطلبي تارة والإنشاء غير الطلبي تارة أخرى.

فاستخدم الإنشاء غير الطلبي، كقوله:

خليلى ما أحلى الحياة حقيقة ...

وفيه جاء الإنشاء الطلبى (للتعجب) فى قوله «ما أحلى الحياة». وفى البيت نفسه (احتراس) جاء فى قوله: «لولا الممات على الأثر» دفع به ما يوهمه من الكلام مما ليس مقصوده.

كما استخدم الإنشاء الطلبى فى قوله:

لعمرك لو عاينت ليلة نفرهم ...

وهكذا تنقل سعدى فى أساليبه الإنشائية بين الإنشاء الطلبى فى الأمر والاستفهام والتمنى.

(ج) واستخدم المجاز المركب، أى خبراً أفاد معنى الدعاء، كما فى قوله:

لحى الله من يسدى إليه بنعمة ... فهو مجاز مرسل مركب استعمل فيه الخبر فى معنى الإنشاء للدعاء، وقوله أيضاً: رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم ...، فهو خبر استعمل فى معنى الدعاء.

٤. النتيجة

وهكذا فقد حفلت قصيدته فى رثاء بغداد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فلم يكتف بالنص القرآنى وحده كمصدر أساسى، بل استعان بالموروث الإسلامى، وهذا ما يفسر لنا معالجته للموضوع الواحد بعدة آراء ربما تضاربت فى الحكم عليها. ونلاحظ أن بيانه ينساب ويجرى فيتلاً فى وما يختزنه عقله من ثقافات متباينة تنوعت فى مصادرها و اختلفت فى موافقها. و هذا التنوع فى الكتابة هو أكبر دليل على أن «سعدى» كان واسع الأفق والخيال، موسوعى الثقافة والفكر. كما تجلّت فى هذه القصيدة بوضوح شخصية الشاعر فى ميلها للواقعية إلا فى القليل. وأن اهتمامه قد انصبّ على الجانب التعليمى والأخلاقى فى أغلب الأحيان، وهذا يعكس لنا نظرتة للحياة وغايته منها. فقد صبّ أفكاره فى قالب شعرى مبتكر يتّصف بالحيوية والإنسانية، وبالقوة والرصانة.

فقصيدته الرائية هى الموضوع الوحيد الذى لمسناه فى شعر سعدى يفيض عاطفة و يقطر شجناً و ألماً و حزناً، و ظهرت فيه المواطنة و الانتماء على حقيقتها الإنسانية و معناها الإسلامى كأمة واحدة و كجسد واحد.

و لم يكن سعدى فى صفّ الحكماء، بل هو أديب شاعر له درجة من الفضل والتأمل الفكرى، والمصدر الأساسى لحكمته هو تجربته و الإلهام.

و الحقيقة أن شأنه هنا شأن غيره من شعراء إيران من ذوى اللسانين على مدى العصور الأدبية الإسلامية التى عرفت بالتمازج الشديد و التداخل المستمر بين الثقافتين الإسلاميتين العربية

وتتألف المدرسة من طابقين شيدت فيهما مائة غرفة بين كبيرة وصغيرة إضافة إلى الاوابين والقاعات.

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D%A%VD%84%9D%85%9D%8AF%D%AB%1D%AB%3D%8A9_%D%A%VD%84%9D%85%9D%8B%3D%8AA%D%86%9D%8B%5D%8B%1D%8A%9A%D%8A9

۱۳. وبنو قنطوراء: هم التُّركُ، وذكرهم حذيفة فيما روى عنه في حديثه فقال: يُوشِكُ بنو قنطوراء أن يُخْرِجُوا أهل العراق من عراقهم، ويُروى: أهل البصرة منها، كأني بهم خُررَ العيون خُنسَ الأنوف عراضَ الوجوه، قال: ويقال إن قنطوراء كانت جارية لإبراهيم، على نبينا وآله وعليه السلام، فولدت له أولاداً، والترک والصين من نسلها (ابن منظور، ۱۴۰۵: ۵ / ۱۱۹) ← القزويني، بلاتا: ۲۵۶).

۱۴. ← هامش ص ۷ من هذه المقالة.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد (۱۳۶۴ هـ. ش.). النهاية في غريب الحديث و الاثر، تحقيق طاهر احمد الزاوي، ج ۲، قم: مؤسسة اسماعيليان.

ابن حوقل، محمد بن علي (القرن الرابع الهجري). صورة الأرض، لاجا: لانا.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (۱۴۰۵ هـ / ۱۳۶۳ هـ. ش.). لسان العرب، ج ۲ و ۵، قم: نشر أدب الحوزة.

الإحسائي، ابن ابي جمهور (۱۴۰۳ هـ). عوالي الآلي، ج ۱، قم: مطبعة سيد الشهداء.

أحمد بن حنبل (بلاتا). مسند أحمد، ج ۱، بيروت: دار صادر.

آشتياني، اقبال و محمدعلي فروغي (۱۳۵۱ هـ. ش.). كليات سعدي، طهران: مؤسسة جاويدان للطباعة والنشر.

البرقوقي، عبدالرحمن (۱۸۷۶-۱۹۴۳ م). شرح ديوان المتنبي، ج ۱، بيروت: دار الكتاب العربي.

البستاني، فؤاد افرام (۱۹۴۶ م). المجاني الحديثه، ج ۱، بيروت: الكاثوليكية.

الحلي، احمد بن فهد (بلاتا). عنة الداعي، دمشق: مكتبة ولدان.

رهبر، خطيب (۱۳۴۸ هـ). جلستان، طهران: مطبعه عالي صفي عlishاه.

سعدي الشيرازي، مصلح الدين بن عبدالله (۱۳۰۵ هـ). كليات سعدي الشيرازي، طهران: الحجرية.

الطوسي، محمد بن حسن (۱۳۵۱ هـ. ش.). المبسوط، تحقيق محمداقبر يهودي، ج ۸، مكتبة المرتضوية.

فروغي [ذكاء الملك]، محمد علي (۱۳۷۴ هـ. ش.). النص الكامل لكليات سعدي، مقدمة و شرح الأستاذ جلال الدين هماني، ايران: الوطنية، جاويدان.

فروغي، محمدعلي (۱۳۲۰ هـ). كليات سعدي، طهران: مكتبة و مطبعة بروخيم.

القزويني (العلامة القزويني)، محمد (بلاتا). يادداشت‌های قزويني، تحقيق إيرج افشار، ج ۳، طهران: جامعة طهران.

القشيري النيسابوري، مسلم بن الحجاج (۱۳۳۲ هـ). صحيح مسلم، مصر: دار الطباعة العامرة.

٦٢ سعدى الشيرازى و حاضرة الإسلام من خلال قصيدته الرائية ...

مؤيد شيرازى، جعفر (١٣٦٢ هـ. ش). *شناختى تازه از سعدى*، إيران: لوکس (نويد).
المتقى الهندى، علاء الدين على (١٣٠٩ هـ). *كنز العمال*، ج ٥، بيروت: مؤسسة الرسالة.
المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية (١٩٨٥ م). *سعدى الشيرازى أديب الفارسية وشاعرها الكبير*،
دمشق.
ياقوت الحموى، شهاب الدين أبو عبدالله (١٣٢٣ هـ. ق / ١٩٠٦ م). *معجم البلدان*، ج ٣، القاهرة: السعادة.

Archive of SID